الانبعاث الحضاري الإسلامي
بين أصالة الرسالة وفعالية المنهج

الأستاذ: بلعتروس محمد

قسم الشريعة – جامعة أدرار

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

إننا نعيش اليوم عالما مليئا بالتهديد، جاهزا للانهيار؛ وذلك نتيجة انحرافاته وتناقضاته وكبرياء قادته في الأرض. أما مجتمعنا الإسلامي، فقد دخل الكهف بأفكاره منذ عهد بعيد، وقدم استقالته من التدافع العالمي. ونتيجة هذا الفراغ، تصدَّر قيادة زمامه طائفة فاشلة ربطت مصيره بعجلة الغرب، تحت رداء تقدمية جوفاء، تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي، وما يحدث من فوضى في العالم.

وثمة عوامل شتى أثرت في واقع المسلمين، وأدت إلى تخلفهم وتدهور سائر أحوالهم، في طليعتها اختلال منظومة التفكير وضمور الأصالة، فضلا عن فتور الروح وتلاشي الأخلاق وذبول الآمال وارتخاء أوتار العزائم لديهم.

إن الانبعاث الحضاري الإسلامي رهينة اليقظة الواعية والتحول العميق الناتج عن تفاعل مطرد بين الرسالية كخاصية والمنهج كأداة، وهو سعي يستهدف الإنسان بجميع قيمه قبل البِنى والوظائف.

إن المجتمع المسلم مدعو اليوم أن يستعيد أصالته الفكرية والروحية، وأن يكتسب خبرته بنفسه، وأن لا يسلم بأن تحدد له موضوعات تأمله، ولا يصح أن يرتمي في التبعية الفكرية من كان وراءه ذلك الرصيد الفياض من الوحي والتجربة الحضارية الإنسانية الدافقة بالحياة والنشاط. إننا لم نعد نقبل أن تبقى أمتنا ساكنة سلبية في وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليها، أو نرضى بأن نصاب بالرق الفكري والخضوع لثقافة الغرب وهيمنته وأسلوبه الحضاري.

ولسنا بحاجة إلى أن نبرهن خطأً " أن الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلى التقدم" كما يزعم فريق التغريبيين. بل إننا متيقنون أن هذه الأمة قادرة، بتوفيق الله وعونه، على استرجاع قوتها الروحية وسداد تفكيرها وفاعليتها الحضارية وشهادتها على العالمين، وذلك متى تم إيقاظ الشعور الديني في المسلمين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشري، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة للعالم الحائر.

إن أخطر ما يواجه أمة أو شعبا هو تزلزل ثقتهم بأصالتهم، وفقدان فاعليتهم الفكرية، وتوقف عوامل الدافعية الحضارية فيهم، واستيلاء التقليد الغبي للآخر عليهم.

إن الخروج من هذا المأزق، والانطلاق الجاد لبعث المشروع التغييري الإسلامي البديل لا يحتاج إلى تأسيس جديد، إذ قد تمت صياغة ذلك المشروع من طرف خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم، وإنما إلى قراءة متجددة وتشغيل واع عبر تفكير متنام ومنهجي.

وتمثل البرهنة على أهمية الأصالة في النهوض الحضاري، وضرورة تفعيل التفكير المسألة العامة التي ندبنا أنفسنا لمعالجتها في هذه المداخلة بتوفيق الله تعالى ومشيئته.

ويلعب المنهج السديد في تصميم التغيير وتنفيذ مراحله الدور الرائد. ومن المؤكد أننا إذا صححنا منهجنا في التفكير والعمل فسنرى أمامنا عالما جديدا واسعا من الفرص والإمكانات للتمكين لمشروعنا.

وسنقوم بتوزيع جهدنا التشخيصي والتحليلي على العناصر الآتية:

المبحث الأول: أصالة مضمون الحضارة الإسلامية

أولا – معنى الأصالة وأبعادها الحضارية

ثانيا – الأصالة الرشيدة لا تنفي المعاصرة النافعة

ثالثا – الطريق الثالث: غير طريق "الجمود المتجاوَز" وطريق "الاغتراب"

رابعا – التمسك بالمرجعية العليا: الوحي هو العاصم من التخبط والضلالة

المبحث الثاني: دور الفكر في تأطير الفعالية الحضارية

أولا – مداخل التغيير السليمة:

1 – الإنسان موضوع التغيير الأول ومحركه الأساس

2 – التدرج السنني في الفعل التغييري

ثانيا – فاعلية التفكير:

1 – الانخراط في سلك التفكير المتنامي

2 – تهيئة الإطار المنهجي والمعرفي للتعامل مع المشكلات الواقعية

3 – الانفتاح الواعي والمستبصر

4 – التحلي بروح المبادرة كشرط لاستثمار إمكانات التطوير

5 – من منطق العمل إلى ضرورة العمل بسرعة الفكر

6 – أن يكون تخطيط التغيير تداوليا وجهده جماعيا

خاتمة.

المبحث الأول: أصالة مضمون الحضارة الإسلامية

أولا – معنى الأصالة وأبعادها الحضارية:

إن الإيمان بكمال الدين الإسلامي، وبخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقدرته على بعث الأمة إلى مرتبة الشهود الحضاري في أي عصر، بل واستطاعته قيادة العالم برمته إلى بر الأمان، غدا مسلَّمة لا تحتمل جدلا، ولا استزادة فيها لمستزيد.

وإذا كان الغرب لا يرى أن الأصالة تمثل أكثر من البعد التاريخي للتحول والتجدد، مستغنيا ومتمردا على القديم، وذلك جريا مع التاريخ الطويل الذي واجهت به أوربا ماضيها اللاهوتي، إذا كان هذا هو موقف الفكر الغربي من الأصالة، فإن الفكر الإسلامي قد جعلها دائما أساس البناء[1].

لم تكتحل عين التاريخ على دين أو شريعة تتسم بالأصالة والعطاء والتجدد كشريعة الإسلام. ذلك أن مبادئها وأحكامها ونظمها ربانية، وليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز والتأثر بمؤثرات المكان والزمان والثقافة، ومؤثرات الوراثة والمزاج والهوى والمصلحة. وإنما شارعها الله تعالى صاحب الخلق والأمر في هذا الوجود، ورب كل من فيه وما فيه، الذي أحسن كل شيء خلقه، العليم الحكيم.

وإن كثيرا من مفكري العالم وفلاسفة الشرق والغرب يعترفون بأن القيم الروحية، والأنظمة الاجتماعية والسياسية التي جاء بها الإسلام، هي الجديرة بإمامة الفكر والإصلاح في العالم، والمؤهلة لتخليص الإنسانية من ويلات الضلال والفساد والفوضى والظلم، نذكر من هؤلاء قول الفيلسوف الإنجليزي "بارنارد شو" في كلمته المشهورة: " لقد كان دين محمد صلى الله عليه وسلم موضع تقدير سام لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، وأنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة. وأرى واجبا أن يُدعى محمد صلى الله عليه وسلم منقذ الإنسانية، وإن رجلا كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته"[2].

ويقول الدكتور "هوكنج" أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد: " إن في نظام الإسلام استعدادا داخليا للنمو. وإني أشعر بأني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض"[3].

فإذا اختبرنا، على سبيل المثال، سعة الفقه الإسلامي، وهو أحد جوانب الدين الإسلامي، وجدناه، خلافا لما يصفه به كثير من الحاقدين والمغرضين والجاهلين، يفي تمام الوفاء بمتطلبات الحياة في كل الأزمنة. يقول القانوني الكبير "فمبري" مجليا هذه الخاصية وشاهدا على هذه الحقيقة: " إن فقه الإسلام واسع إلى درجة أنني أَعجَب كل العجب، كلما

---

[1] – أنور الجندي، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية – الأردن، السنة الرابعة، العدد الحادي والخمسون، 1392 هـ – 1972م، ص 109.

[2] – انظر، عبد الله ناصح علوان، الإسلام شريعة الزمان والمكان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ص 63– 64.

[3] – انظر: عبد الله ناصح علوان، المرجع نفسه، ص 12.

فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم"[1]. فأكد أن الفقه الإسلامي خصب معطاء واف بالمطالب، وأن الخلل يكمن في عجز المسلمين عن حسن استثماره والإفادة من ذخائره.

فليس الخلل إذن في مضمون الرسالة الحضارية لهذا الدين، أو قصور منهاجها وقيمها، أو نضوب معينها على مستوى العطاء والقدرة على التجدد ومواكبة تأطير الحياة. إنما يكمن الخلل في وعي المتصدين لبعث المشروع الحضاري الإسلامي، وفي المسلمين بعامة، وفاعليتهم وقدراتهم على الفعل والمبادرة والانتقال بمشروعهم من حالة السكون إلى واقع التجسيد. أجل إن المشكلة الحقيقية التي نعاني منها اليوم ناجمة عن تراجع المد الروحي، والإصابات التي نالت من منظومتنا الفكرية وثقافتنا الذاتية نيلا عظيما. إنها أزمة العقيدة، ومشكلة العقل الذي يقيم من تخلفه حاجزا نفسيا يعطل فاعلية القيم ويشل قدرتها على الدفع لارتياد الآفاق.

وواضح أن ما يعبر عنه بعض المحْدَثين من مفكري الإسلام بالغياب الحضاري، ليس معناه افتقاد القيم، أو ضحالة الموروث الثقافي الإسلامي، أو عجز أو قصور التجربة الحضارية التاريخية. بل مرده إلى وهن الدافع الإيماني، وفتور الفاعلية، واضطراب منهج الفهم، وعدم القدرة على التعامل مع القيم الثابتة والإفادة من الميراث الثقافي، وعدم استيعاب التجربة الحضارية في تاريخها وحاضرها، وعدم التمكن من تنزيل الإسلام على واقع الناس وإيجاد الأطر الشرعية لحركة المجتمع من خلال فقه الدين وفقه التدين. فالمشكلة إذن بالنسبة لمسلم اليوم ليست في مضمون الدين، أو في عدم وجود المنهج الحضاري، وإنما هي في عدم فقه الخطاب وتأصيل طريقة التعامل معه، وكيفية تنزيله على الواقع البشري[2].

إن تحقيق الحضارة الإنسانية الراشدة التي تليق بالرسالة الخاتمة لا يتم إلا من خلال إصلاح البشر بهداية الوحي، وعمارة الأرض بفقه قوانين التسخير.

لقد كان الفكر الإسلامي في العصور الإسلامية الأولى حيا نشيطا غزير العطاء حافلا بالإبداع والتجديد، وقد ظل كذلك حتى أخذ المسلمون يستمدون مناهج التفكير من غير الأصول الإسلامية الصافية، فأخذوا بالفلسفة والجدل، وكثر اعتمادهم على التقليد المذهبي، وانخرط كثير منهم في طرق التصوف المنحرفة التي تشل الفكر وتغلق الفهم وتعزل المرء عن واقع الحياة الإيجابية، عندها أُصيب المسلمون بالخمول الفكري والذهول الحضاري، مما أوجد لديهم القابلية للتقليد الأعمى لغيرهم، وهو ما حدث بالفعل حين انفتح العالم الإسلامي على الحضارة الغربية بما لديها من فلسفات وأفكار وتصورات وثقافة جديدة[3] فانبهر قطاع كبير بإنتاجها، وارتمى في أحضانها من حيث يشعر أو لا يشعر. وهذا ما عناه الأستاذ محمد أسد حين قال: "ولقد مرت على العالم الإسلامي فترة من الركود...فوثب الكثيرون من المسلمين إلى استنتاج سطحي خالص يتلخص في أن النظام الإسلامي في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم، ولذا

---

[1] – انظر: عبد الله ناصح علوان، المرجع نفسه، ص 12.

[2] – عمر عُبَيد حَسنة، تأملات في الواقع الإسلامي، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي بيروت– لبنان،1411 هـ – 1990 م، ص 26.

[3] – ناصر بن عبد الكريم العقل، التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، رسالة لنيل شهادة العالمية، كلية الشريعة– جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1393هـ – 1394 هـ، ص 107.

يجب أن تُحور حسب الأسس الغربية"[1]. وعندما يأفل الفكر الإسلامي الأصيل، ويذهل عن تميزه وأصالته، وتفتر حيوية المد العقائدي، تجد المدنية الغازية لها في النفوس قبولا، وفي العقول تأثرا، وفي المخططات مجالا، وفي هذا يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: " وعندما يكون الفكر الإسلامي في حالة أفول، كما هو حاله في الوقت الحاضر، فإنه يغرق في التصوف وفي المبهم والمشوش وفي عدم الدقة وفي النزعة إلى التقليد الأعمى وفي الإعجاب بأشياء الغرب"[2].

وإذا كان هناك شيء ينبغي ويستحق أن تأخذه أمة عن الأمم الأخرى، فإنما هو مناهج أبحاثها العلمية، ومعطياتها الاكتشافية، ونافع نتاجها في هذا الصدد، مما تكون قد بلغت به معارج الرقي في حياتها المادية والتنظيمية. ومن الواجب أن نستقصي أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص، ولا نأخذ منها إلا ما نراه ملائما لحاجتنا وظروفنا. وبذلك يكون اقتباسنا اقتباس تحقيق لا اقتباس تقليد، فالفرق بعيد بين الأخذ من العلوم والمخترعات، وبين الأخذ من النظريات والمذاهب الفلسفية والثقافية وزخرف المدنية وأهوائها ومجونها ورونق خبيثها، فالأول مغذٍ لكياننا مجد، والثاني مضر لا نفع فيه. فما لأدعياء التقدم المتشدقين بالإصلاح والتغيير عندنا لا يندفعون ولا يولَعون إلا باستيراد المظاهر الفارغة المترهلة. إن التقليد على الطريقة التي يلهج بها هؤلاء لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة، ولا يحقق نهوضا حضاريا أبدا.

لقد أخذت أوربا من الحضارة الإسلامية الشيء الكثير، فترجمت العلوم ونقلت المعامل وأدوات التجارب وغيرها، ولكنها لم تقبل الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والتوحيد، ولم تتبن قيم الإسلام وثقافته الذاتية، وإنما أقامت فكرها وثقافتها على أساسها القديم المستمد من الفلسفة اليونانية والرومانية. فجميع استمداداتهم من الفكر الإسلامي جردوها، وصهروها في ثقافتهم وكيانهم. فلماذا لا يقف المسلمون اليوم هذا الموقف، وذلك هو الأمر الطبيعي للأمم والثقافات والحضارات؟ والقول بغير هذا زيف وتغرير يراد به صهر هذه الأمة في أتون الفكر الغربي، وتحويل الفكر الإسلامي إلى فكر تابع ذليل قد سقطت عنه مقوماته وذاتيته وذاب في الأممية[3] أو كيان الغير. فدعوى الانفصال عن الماضي والانقطاع عن الجذور دعوى تغريبية، والغربيون الذين يدعوننا إلى ذلك صراحة أو ضمنا، من خلال محاولة تصوير تاريخنا بصورة تبعث على السخرية منه والتهوين من قيمته وشأنه، لم ينفصلوا هم عن ماضيهم كما بينا. إن النظر إلى الأمام، وبناء الحاضر والمستقبل لا يمكن أن يتم دون التزود من الماضي والعب من نبعه الصافي والاستمداد من عناصره الصحيحة. هذا، ونحن أحق من الغربيين بالاستمساك بالماضي[4].

---

[1] – محمد أسد، رسالة في التقليد، ص 6-7.

[2] – مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، 1423 هـ – 2002 م، ص 21.

[3] – أنور الجندي، شبهات في الفكر الإسلامي، الاتحاد الوطني لطلبة الإمارات، 1405 هـ – 1984 م، ص 39-40.

[4] – الحقيقة أن فكر الإغريق والرومان ينطلق عليه اسم " تراث"، ولا يصح أن يقال ذلك عن الفكر الإسلامي الذي ما زال حيا متفاعلا بالرغم من سقوط الدولة التي تحميه وتتبنى قضيته بصراحة واعتزام. وقد أشار المستشرق هاملتون جب إلى هذا المعنى حين قال: " إنه ليس في وسع العرب– يعني المسلمين– أن يتجردوا من ماضيهم الحافل، وسيظل الإسلام أهم صفحة في هذا السجل الحافل".

وما أكثر من يتساهل في موضوع الأصالة، ويستهين بعواقب التقليد الأعمى، ويظن أنه الطريق الصحيح للخروج من وضع الانحطاط والتخلف. ولو أبصروا قليلا، لأدركوا أن بالتقليد تفقد الأمة المقلِّدة مقوماتها الذاتية، وتختل أسس حضارتها، وتعيش عالة على غيرها، وتصير مهتزة الشخصية، تابعة لمن تقلده، غير قادرة على الإنتاج والإبداع وتحمل تبعاتها بنفسها، وينتهي بها الأمر إلى الفشل المحقق، وإلى الاضمحلال والاستعباد وزوال الشخصية تماما، فتُصاب بأمراض نفسية واجتماعية خطيرة من الذل والشعور بالنقص، أضف إلى ذلك التبعية السياسية والاقتصادية والانهزامية في كل شيء. والأخطر من ذلك كله انصراف الأمة صاحبة الشهادة على الناس عن رسالتها، ويرديها التقليد الأعمى فريسة للأمراض الخلقية وللرذيلة والفواحش والفجور، وترهقها النظم والقوانين والعادات الجديدة التي تنخرط فيها وهي لا تلائمها، وتعطي ولاءها للكفار، وتصير لا محالة عونا لهم ورقما في حسابهم، وتستبيح حرمات الله تعالى، ثم تنتهي إلى حال من الردة والفسوق عن أمر الله تعالى، ويا للخسارة. أفيُستهان بعد هذا بالعواقب المدمرة للتقليد الأعمى؟.إننا نرى اليوم رأي العين كيف يعمل التقليد عمله الفتاك، ونرى آثار دماره في كل تفاصيل حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية. والحق يقال أن ما نجم عن تقليد الغرب في أهوائه وزيوفه، قد أخلط أوراق العالم الإسلامي، حيث يلتفت، بسبب تلك التوافه، عن أم مشكلاته، ألا وهي مشكلة حضارته وما يتصل بها من قضايا هامة ومشكلات حقيقية. وقد كان الغرض من كل ذلك واضحا، إنه إغراق الأمة بمشكلات وهمية، وإلهاؤها بحلول وهمية، وتكبيلها بسفساف الأمور، والزج بها في المعارك غير الصحيحة التي تستنزف قواها وتحرفها عن مسارها الصحيح.

وهناك خلق كثير من الأبرياء السذج الذين يضعون أقدامهم من غير شعور في ثقافة الغرب، بل في سياسته ومخططاته أيضا، وجحافل كبيرة أيضا من النخبة الثقافية والأدبية تدير حملة شعواء على القيم الإسلامية، ويتقدمون بأنصاف الحلول لأنصاف المشكلات – كما يقال–، ويلتقون مع أساتذتهم الغربيين في الانتقاص من سوابق الفكر الإسلامي، ويحيطون مستقبله بالريبة والتشكيك بتلك الثرثرة التقدمية.

علينا، إذا أردنا أن نتمسك بأزمة الأمور، أن نتشبث بأصالتنا الحقيقية، كما علينا " أن نكتسب خبرتنا، أي أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألا نسلم بأن يحدد لنا. وبكلمة، علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية"[1].

ثانيا – الأصالة الرشيدة لا تنفي المعاصرة النافعة:

القول بأهمية الأصالة وأنها تمثل حجر الزاوية في بناء حضارة الإسلام، ليس معناه إهدار بعد المعاصرة من سعينا، وإسقاط معطيات العصر من الحساب، أو الإعراض عن منتجاتها النافعة والخادمة لمشروعنا. بل المراد تقريره من وراء ذلك هو وضع كل مطلب من المطلبين في مكانه الصحيح، وبيان ما هو أصل وما هو عنصر خادم للأصل، غير خارج عنه.

" فمن العبث إذن أن نضع ستارا حديديا بين الحضارة التي يريد تحقيقها العالم الإسلامي، والحضارة الحديثة"[2]. ولكن بوسعنا، بل من واجبنا أن نقتبس ما ينفعنا من تلك الحضارة، وأن نحتمي من تأثيراتها الضارة.

---

[1] – مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت، 1969 م، ص 48.

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي– عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 1406 هـ – 1986 م، ص 43.

وإذا كانت قناعتنا حاصلة بخصوص ضرورة الاستمداد من حكمة الغير ومن بعض مواد حضارته، فمن المهم جدا أن نسلط ولو بصيصا من الضوء على منهج الاستمداد هذا، حتى لا نقع في الخلط أو نسقط في الضلالة.

يبين صاحب "أضواء البيان" موقف المسلمين من الحضارة الغربية قائلا بإنصاف ووضوح: " الاستقراء التام القطعي على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار. أما النافع فيها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه... وأما الضار منها فهو إهمالها بالكلية الناحية التي هي رأس كل خير، ولا خير البتة في الدنيا بدونها... وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه" ثم يقول مؤصلا، بعد أن ذكر حكم الأخذ من النافع منها: " وقد انتفع الرسول صلى الله عليه وسلم بدلالة (أبي الأُريقط الدُّؤلي) في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر...فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جل وعلا...فتصلح لهم الدنيا والآخرة. والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية، فيأخذون منها الانحطاط الخلقي...والانسلاخ من الدين والتباعد من طاعة خالق الكون... ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين"[1].

ويزيد صاحب (الظلال) الأمر وضوحا وحسما لمنهج الاستفادة من الغير بقوله: "ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشدد مع أصحابه رضوان الله عليهم في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة؛ كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العلمية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، وبالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان، وفرق بيْن هذا وذاك بيِّن، فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر. والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة"[2].

إن الإسلام لا يعادي جديدا إلا إذا كان ضلالا، ولا يصد عن تطور إلا إذا كان انحدارا. فالإسلام دين الحرية، ودين العقل، ودين التطور والتقدم، ودين كل قيمة رفيعة أصيلة، ولكنه لا ينخدع بأي من تلك القيم إذا رفعت شعارا، بل يخضعها لفحص مركز، حتى يميز الباطل من الحق، والزائف من الأصيل.

ولن تحقق الأمة الإسلامية انبعاثا حضاريا جديدا يكتب له الريادة، حتى تفيء إلى دينها بصدق وفهم واعتزاز، وتحسن استثمار رصيدها الحضاري التاريخي بعد تمحيصه بعناية، وتستفيد من النتاج النافع لحضارة العصر ومن كل الفرص السانحة والوسائل المتاحة بعد وزن كل ذلك بميزان العقيدة والقيم، وتعتمد على الله أولا في بناء حياتها الجديدة، ثم تقيم تشييدها بنفسها: مستقلة بتفكيرها، مستغنية بجهودها الخاصة، مهما كلفها ذلك من عرق وتضحيات وتحديات.

---

[1] – محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تفسير سورة مريم، مطبعة المدني، 1384 هـ، ج4، ص 412.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة السادسة، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص 20-21.

ثالثا – الطريق الثالث: غير طريق "الجمود المتجاوَز" وطريق "الاغتراب":

إن علينا عملا مضنيا في تصفية التراث من أدرانه التي علقت به طيلة عهود متطاولة من الزمن، وإن لنا موقفا واضحا حاسما تجاه التغريب والمساعي الرامية إلى فرضه على مسيرتنا خيارا لا محيص عنه، هو الإعراض والترك، وإنا ماضون في طريق ليس فيها جمود على ما ثبت ضعفه أو عدم نفعه، ولا مجازفة في تيار ينافي أصالتنا، إنها الطريق الثالثة.

وفيما يتعلق بالشق الأول من الخيار، يقول مالك بن نبي: " وإنه ليجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتَّالة، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة... ونخلص من ذلك إلى ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين: الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي، والثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل"[1].

وهذه هي الخطة العملية التاريخية التي درجت عليها الحضارة الإسلامية مستمدة إياها من القرآن الكريم، ولا تزال هذه الخطة صالحة كل الصلاحية للأخذ بها في زماننا هذا وفي كل زمان، والعمل بها لازم لكل بناء حضاري جاد، يقول مالك بن نبي: " إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التحديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم، الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية. وهذا العمل نفسه لازم اليوم للنهضة الإسلامية"[2].

أما الطريق الثاني، فهو طريق التغريب الذي يريد أعداؤنا والمقلدة من أدعياء الإسلام، أن ننخرط فيها بلا قيد ولا شرط وبلا أدنى روية وتأمل. إن الانصياع لهذه الدعوة معناه الانخراط اللاواعي في مسالك الآخرين الذين يختلفون معنا في المنطلق والغاية، وفي أسلوب العيش وطرائق التعاطي مع الأشياء. إن هؤلاء لا يرضون أن نظل محافظين على أصالتنا، ونتفاعل مع المعطى الحضاري أخذا وتركا برشادة.

والعجب كل العجب من فوضى التبديل الذي لا يستند لمنطق غير ما يوحي به محاكاة الآخرين، وينقلب ذلك كله إلى ما سماه البعض بـ" تجديد التقليد"؛ أي بالعدول عما ألفناه إلى ما ألفه غيرنا؛ لأن منطق "الموضة" لا يهتم بأكثر بأكثر من أن يكون الشيء الذي سننتحله جديدا بالنسبة إلى وسطنا، ولو كان رجوعا إلى القهقرى وابتعادا عما ننشده من تطور مفيد وإصلاح متين. وهنا يجد المفكر مشقة عظيمة وعنتا في إقناع الذين يريدون التجديد بأن ما ينتحلونه ليس إلا رجعية بالية أو شرا منها[3].

إن الذين يريدون تحويلنا عن الوجهة الصحيحة للتغيير الحضاري يستعملون ألوانا شتى من المغالطات، ولنضرب مثلين اثنين فقط على ذلك من الثقافة والسلم الاجتماعي: فعلى صعيد المنتجات الثقافية، يريدون أن يوحوا إلى المسلمين أنه لا يمكن أخذ التقنية من الغرب وترك رقصهم وأغانيهم وصنوف عجيبة من المجون والعبث واللهو وتحريمهم الزواج بأكثر من واحدة، وينسى هؤلاء أو يتناسون أن هذه كانت سيرة القوم قبل أن يكون لهم علم طبيعي أو تكون لهم تقنية، فلا

---

[1] – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 80.

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 81.

[3] – علال الفاسي، النقد الذاتي، الطبعة الأولى، المطبعة العلمية، القاهرة، ص 37 (بتصرف يسير في العبارة).

علاقة لهذا بذاك ولا بالعصر الذي نعيش فيه، فلا تلازم بين الأمرين إلا عند الخادعين أو المخدوعين. ومن هذا القبيل ذهابهم إلى أن السلم المدني لا ينبت إلا في ظل نظام علماني لا يكون للدين فيه نصيب، وهو مذهب يكذبه التاريخ، فالعلمانية لم تحقق هذا السلم على المستوى العالمي، بل إن أولى الحربين العالميتين في تاريخ البشرية، والثانية الأخرى من نوعها، قد حدثتا في ديار الغرب وفي ظل العلمانية، ولا دخل للعالم الإسلامي ولا للدين فيهما، وقد نتج عنهما من الضحايا البشرية والدمار والفساد ما لم يكن له مثيل قط في التاريخ.

إن أخطر سيطرة فكر على فكر هي نقله من دائرة فكره ومناخه الأصيل ومزاجه الخاص، واستغفاله أو ترويضه على التحرك في فلك الفكر الوافد المسيطر. لقد نشرت جريدة "التايمز" تكشف الحملة على الإسلام، ما مفاده أن هناك محاولتين في مواجهة الإسلام: * الأولى: أن يتحرك الإسلام في الخطوط التي رسمها له الاستعمار؛ أي دائرة التغريب والغزو الثقافي ومخططات التبشير والاستشراق، * والثانية: نشر البدع والخرافات وتحريف المفاهيم والقيم، وهذا ما يطلق عليه (هدم الإسلام من الداخل)[1]. ولذلك فإن أولى علامات اليقظة هي التحرر من مقاييس التغريب ومذاهبه والمفاهيم التي حاول أن يفرضها، وهي زائفة أصلا، بغية تدمير معنويات الأمة واحتواء العقل الإسلامي بعد تفريغه من مقوماته.

ومما يجدر تسجيله هنا أن الكثير من معاركنا وصراعاتنا تحت شعار الأصالة والمعاصرة، لا تمثل هذه الصفة ولا تلك، فلا هؤلاء استفادوا من كنوز التراث وعناصر قوته وانطلقوا يستثمرونه بفهم وبصيرة، ولا هؤلاء أدركوا مقتضيات الحاضر وأحسنوا الإفادة مما توفره اكتشافات المدنية الحديثة، إنها معارك حضارية وهمية.

هذا، وإن الادعاء بأن سبب التخلف يرجع إلى التشبث بالماضي والاعتزاز به، يحمل في طياته ضروبا من التجني. كما أن اتهام المعاصرة على إطلاقها موقف مشوب بالتعميم والخلط، ولا يستند إلى تمحيص كاف. ونحن إذا نظرنا بعينين مبصرتين، مستبعدين كل صور التحيز والتغرض، قررنا أن الأفكار القديمة والعوائد السالفة فيها الغث والسمين، وأن النظريات الحديثة والثقافة المعاصرة هي الأخرى فيها الغث والسمين، وألفينا: انهيار بنى فكرية قديمة، وضلال أفكار جديدة، سواء بسواء، تحت أقدام التحليل الفكري الرصين والرؤية النقدية الموضوعية.

إن الفكر الحصيف والحكمة المبصرة يقضيان بالاغتراف من الماضي ما هو صالح للإحياء والدلالة على الرشد ومناسب حاجة العصر، وإهمال كل ما يضر بالمجتمع ولو كان من عمل المعاصرين وإنتاجهم. أجل، نأخذ من القديم أحسنه، ومن الحاضر أنفعه، ونحاول المتابعة في التقدم بما نستجده نحن من تجاربنا مما ليس في القديم ولا في الحديث.

4- التمسك بالمرجعية العليا: الوحي هو العاصم من التخبط والضلالة:

القرآن الكريم – ومعه السنة النبوية المطهرة– هو المنهاج القويم، وهو المنطلق والسناد الأقوى للمسلمين في كل عمل أو إصلاح أو بناء حضاري. فهو مفتاح الخروج من الأزمات، وفيه بيان لطريق النصر، وأسلوب العمل وسنن الكون والحياة، وقوانين قيام المجتمعات والأمم والحضارات وسقوطها، وفيه قصص السابقين، الغاوين والمهتدين، وكيف كانت عاقبة كل فريق.

[1] – أنور الجندي، مشكلات الفكر المعاصر، ص 21.

وقد طُبق قانون النصر والهزيمة على المسلمين في مسيرة الدعوة الأولى، وخضعوا إليه خضوعا كاملا. فقد صدقت سنن الله في المسلمين في معركتين – مثلا- وهما أُحُد وحُنين، حين أخلوا بأسباب النصر وشروطه، فكانت الهزيمة في أحد لأسباب معلومة، وفي حُنين هُزم المسلمون حين تفرقوا واعتدوا بأنفسهم، فلما عادوا إلى التجمع وتوكلوا على الله تحولت الهزيمة إلى نصر.

وإذا ذهبنا نطبق قانون قيام الأمم وانهيارها على تاريخ المسلمين ألفيناه واضحا مضطردا في وقائع تاريخ حياتهم. ولقد كان المسلمون واعين تماما بسريان ذلك القانون مدركين أثره، فما إن يتخلف بهم طريق أو تحل بهم قارعة أو خطر أو ضلالة حتى تعلو الصيحة بالعودة إلى منهج القرآن. وما غفل المسلمون عن هذه الظاهرة الواضحة إلا عندما دخلت عليهم مفاهيم ومناهج غربية وافدة في تفسير التاريخ وقراءة أحداثه وعِبره[1].

و معنى هذا أن العودة إلى الينابيع الأصلية، والتزام المرجعية العليا هو الشرط الأول والأساس في بناء أي نهضة، وتشييد أي حضارة حقيقية راسخة الأركان. ولن يتحقق ذلك عبر التبعية أو التقليد. وإن هدف الأعداء من محاولة تضليل المسلمين عن المصادر الصحيحة، أو إغفالهم عن مرجعيتهم، إنما هو إعطاؤهم التيه، ومحاولة صهر هذه الأمة في بوتقة الأمم تمهيدا لإيقاعها في مؤامرة الاحتواء[2] والتمييع والتبعية ومن تم هزيمتها والقضاء عليها.

لقد جنى الخلط بين الأمور على كثير من الناس، ومن أخطر صور الخلط ذلك المتصل بين علمين: علم العقيدة وما يرتبط به من النظرة إلى الوجود والقيم والأخلاق، فهذا لا يستمده المسلمون من غير مرجعيتهم. وعلم الطبيعة والفلك والصناعة وما شاكل ذلك، فهذا من حق المسلمين أن يقتبسوه ممن شاءوا.

[1] – أنور الجندي، عالمية الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص 124 وما بعدها.

[2] – أنور الجندي، المرجع نفسه، ص 128.

المبحث الثاني: دور الفكر في تأطير الفعالية الحضارية

سأحاول جهدي تحديد المنطلقات الأساسية والقواعد التي أراها صالحة لانبعاث حضاري جديد، وما هو ضروري لخروج عالمنا الإسلامي، الذي يمر في محنة غير مسبوقة النظير، من الخمول إلى الشهود الحضاري.

أولا - مداخل التغيير السليمة:

1- الإنسان هو موضوع التغيير الأول ومحركه الأساس:

إن أخطر الإصابات الحضارية هي التي تلحق بأنفسنا وأرواحنا وأخلاقنا وبنائنا الداخلي. والقانون الأعظم للتغيير الحضاري إنما هو ما رسمه الله تعالى بقوله: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وهو القانون الذي صاغه مالك بن نبي صياغة حضارية موجزة: غير نفسك تغير التاريخ. وإن علاج الوهن الحضاري إنما يبحث عنه في الداخل الإسلامي، ومن المستحيل استيراد علاج الوهن من الخارج الإسلامي[1].

إن الأسباب الداخلية هي ذات الشوكة والغلبة، وإن الإنسان الأساس في هذه المعادلة. وإذا قلنا الإنسان في هذا السياق قصدنا الإيمان والوعي الإيماني والإصرار الإيماني.

إن الفكرة الموجهة لسياسة من غرضها مجابهة التاريخ لتغييره، لا بد لها أن تستند إلى العقيدة والإيمان، إذ الجهد المدعم بمصلحة عاجلة قد يتولى، ليس فحسب حين تحصل في بعض الظروف خيبة أمل تدفع إلى التراجع القهقرى، بل حتى إذا دخل المجتمع حالة إشباع وتفوق يسودها الفتور واللامبالاة.

إن الإيمان هو أكبر قوة في تصرف الإنسان، فمن كان مؤمنا حق الإيمان زادت قوته عشر أمثالها. والتاريخ يدلنا على أنه كلما وهنت الدوافع الروحية والقوى الأدبية التي يقوم عليها بناء تقدم أمة أو جماعة كانت خاتمة الاضمحلال.

و اليوم لم ننته إلى هذا الوضع من اللافاعلية، وارتخاء الأوتار، إلا بسبب وهن العقيدة وفتور الإيمان. إنه لم يكن العسير –كما يقول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله- يعسر على أسلافنا الأولين، كأن في أيديهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها. فما سر ذلك؟ إنهم – يجيب- غلبوا على الدنيا، بكل إغراءاتها وصعابها، لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي. أولئك أهل الدين الصحيح والنفوس الكاملة والأخلاق الإلهية.

فمتى نستيقن أن الإيمان:

- هو شرط الفلاح في الدنيا والآخرة
- وأنه البلسم الشافي حين تصدأ القلوب وتتعكر النفوس وتبرد الهمم
- وأنه الحل الناجع المرجوع إليه في مآزق الفتنة والضلال
- وأنه السند المتين الذي تزدهر المشاريع والأعمال إذا اتكأت عليه
- وأنه أقوى عامل في انتصارات المؤمنين في جولاتهم مع أعدائهم في المعارك التاريخية الفاصلة.. إنه نجح وينجح حين تفشل الأساطيل والقوى الحربية وغير الحربية

[1] - عمر عبيد حسنة، المرجع السابق، ص 36.

– وأنه سر انتشار دعوة المؤمنين، واتساع نفوذهم، حتى إذا وهنت الدفعة الروحية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود.

والإيمان الذي يتعين السعي إلى تحقيقه وغرسه في الضمير هو:

* الإيمان العميق: وهو السبب الأساس في كمال النفس ونضج الشخصية والتأثير في الغير، ونجاح الخطة الموضوعية.

* الإيمان النامي: فهو العنصر الأساس لاستمرار الفكرة والدعوة والثبات عليها

* الإيمان الواعي: وهو سبب السلامة من كل زيغ وانحراف

* والإيمان الحق: وهو ما استصحب استقامة على نهج الطاعة، وجدية في العمل لنصرة الدين الحق..

هذا وإن أدق الأنظمة ينهار مع خراب النفس، وإن أكمل الخطط تصير حبرا على ورق مع فساد الإنسان وانحرافه وخوره. إن الواجب الأول المحتم هو تزكية النفس حتى تسمو، وتطهير الحقل من أعشابه الضارة. وإن جهدنا في التغيير والبناء لا ينجح ولا يبلغ مداه إلا ببناء روحي كامل ومتين.

إننا أحوج ما نكون إلى أن يعرف كل مؤمن منا طرق تجديد الإيمان في القلب حتى يستيقظ الحافز الاجتهادي في النفوس، ويتقوى مدد المبادرة، ويستنير العقل المؤمن بنور العلم الذي ندير به أي معركة في الحياة.

ويبقى بعد هذا مطلب هام هو إيجاد إنسان التغيير القادر على الوعي بمقتضيات العمل التغييري، وفهم آلياته وأدواته، وشروطه ووسائله، الصالح لممارسة الدور التغييري باقتدار ورسالية إيمانية.

إن تغيير الإنسان ونقله من حال إلى حال، هو المقدمة الصحيحة لتغيير الواقع وأوضاعه: " غير نفسك، تغير التاريخ".

2- التدرج السنني في الفعل التغييري:

إن فهم طبائع الأشياء، والسنن الربانية في الآفاق والأنفس، يشكل القاعدة الصلبة للتفكير المنهجي الموثوق. والأخذ بهذا الشرط يأتي بما لا يمكن تقديره من الفهم والبصيرة واستشراف مستلزمات الفعل التغييري، كما أن ضعف الحاسة تجاه هذا المطلب يؤدي إلى اضطراب المسيرة وانقطاعها.

ثانيا – فاعلية التفكير:

قصدنا بفاعلية التفكير هنا إضفاء التنامي على تفكيرنا، وممارسته استنادا إلى منهجية دقيقة، وتزويده بالخبرات التي يمكن استخلاصها من الانفتاح الواعي، وتوجيه أصحابه ليأخذوا زمام مبادرة التغيير المأمول إحداثه في هدي الوحي وفي نطاق الأصالة، واصلين إياه بمنطق العمل.

1- الانخراط في سلك التفكير المتنامي:

من المعروف أن الإنسان عموما لا يستخدم سوى جزء يسير من طاقاته وقدراته الذهنية، وهذه المواهب تكاد تكون معطلة تماما عند مسلم اليوم. وقد بات لزاما علينا، بالنظر لثقل التبعة وعِظم التحديات، أن نشحذ أجهزة تفكيرنا إلى الغاية القصوى، ونرفع توتر عملها إلى أعلى مستوياته. وليس المطلوب منا اليوم مجرد التفكير، بل التفكير العبقري.

وسأحاول هنا ذكر بعض الملاحظات والأساليب التي تساعد على تنمية الأفكار، أو تنامي الفكر، كشرط لازم لحسن تأطير الفعالية الحضارية:

أ – وضع الأفكار في مجال أرحب: إن مشكلة الحضارة من المشكلات التي تتميز بامتدادات وعلاقات بمجالات عديدة، فهي بطبيعتها تلك تكره الحصر في حيز ضيق، وتتلهف لأن تعالج قضاياها في فضاء أرحب من النظر.

وإن هناك حجبا كثيرة تحرم الفكر من القيام بعمله، وتجعل مجال نشاطه يضيق، أو تنحرف به عن الإصابة والإفادة معا: أليس واضحا ما يحدث غالبا من أن تعمي الأغراض بعض الضمائر، أو تضللها الأوهام، أو تتسلط عليها المنفعة، أو تجرها العاطفة...؟. والحقيقة التي لا تخفى، أنه لا سبيل إلى تفكير مستقيم وفاعل وهذه الحجب ومثيلاتها تغشى عقل من يفكر.

ب – المقارنة بالتجارب والمشروعات الشبيهة: تستمد المقارنة جدواها مما تتميز به المعرفة البشرية من توحد، ومن التشابه الكبير بين حصائل الخبرات الإنسانية في مختلف مجالات الحياة. وسيكون من المفيد جدا لمن يتصدى لمشروع معين أن ينفتح على المشروعات والأفكار الشبيهة؛ وذلك لإثراء أفكاره وخططه، من خلال ملاحظة المفارقات، والوقوف على وجوه الابتكار، واكتشاف الأخطاء والعمل على اجتنابها، واختبار مدى جدوى وسائل التنفيذ وأسلوب العمل عند أصحاب المشروع المشابه. وعند وضع أفكارنا ومشروعاتنا موضع المقارنة مع نظيراتها، فإننا سنحصل، ولا ريب، على فرصة عظيمة لتطويرها من خلال ما نكتشف من وجوه قصورها وعيوبها.

إن المقارنة مصدر فذ من مصادر التعليم وتكوين الوعي البشري، وإثراء طرائق العمل، وتنقيح خبرات الناس العملية، وتطوير أدائهم.

ج – طرح الأسئلة بخصوص منهجية التغيير ومستلزماته: يعد هذا الأمر من صميم عمل المفكر ومن لب التفكير الراقي. وإنما كان طرح الأسئلة مُهما؛ لأنه يسمح بفتح طريق جديدة للتبصر والفهم، ويستكشف فروضا جديدة لإنجاح العمل أو تطوير الأداء. ولا ريب أن سؤالا واحدا قادر على أن يفجر من المعرفة ما لا يفجره ألف جواب؛ ذلك أن السؤال الجيد يحملنا على مراجعة النظر بشأن بعض المقدمات والمنطلقات العملية والمسلمات الإجرائية، وهذا ضروري جدا للتقدم العقلي والحضاري.

إن من مهام أصحاب الفكر اليوم إعادة صوغ كثير من الأسئلة في ضوء التحولات الجارية. كما عليهم أن يفتحوا نار الأسئلة على المقولات الغامضة، والمناهج القاصرة، والثنائيات العقيمة. فسؤال ما العمل؟ على سبيل المثال، يجب أن يسبق بسؤال آخر أولى في الترتيب، وهو "ماذا يحدث؟"؛ لأننا إذا لم نفهم ما يحدث لن نسهم في صناعة الحدث. كما لم تعد المشكلة الأولى في الترتيب هي المناداة بتغيير العالم، بل معرفة كيف يتغير وكيف يتحول؟ لأننا إذا لم نعرف مدى التغيرات التي أصابت المفاهيم والمعايير، لن نتمكن من تغيير العالم. والمقصود مما سبق من الإشارة، أن هناك دوما تسلسل منطقي يجب مراعاته عند التفكير في القضايا وأثناء وضع الأسئلة الضروري الإجابة عنها. فمثلا، اعتدنا أن نلقي السؤال " كيف نغير؟" في حين يجب أن يسبقه سؤال "ماذا نغير؟"، أو نبادر بالقول " ضرورة اتخاذ موقف من كذا"، وننسى أحيانا وضع السؤال بشأن "المقياس" الذي يتخذ للحكم، في ميدان تتبدل فيه الأمور بكثرة وسرعة وتتشابك فيه الاعتبارات بشكل معقد.

هذا، وإذا فكرنا في أمر الولوج والاقتحام، فلا ننسى في غمرة ذلك أن نتساءل أيضا عن احتياطات الخروج أو الانسحاب، ويُذكر أن بعض قادة الجيش التركي، عندما اعترضتهم سلسلة جبلية وعرة، أثناء فتوحاتهم لبعض البلدان الأوربية، وقفوا يتشاورون ويتداولون الرأي بخصوص خطة عبور تلك الجبال الصعبة، فدنا منهم أحد الضباط النبهاء، فسمع قائدهم يقول: نمر من هنا، ثم نعرج يمينا، ثم نرتقي الجبل المقابل، واسترسل في بيان طريقة الاجتياز، فلما انتهى من كلامه، قال له ذلك الضابط: ولكن كيف نخرج، يا سيدي؟ أي ماهي خطة الرجوع، إذا ما واجه الجيش احتمال الهزيمة مع العدو واضطُر إلى التراجع؟.

ويكفي أنك إذا طرحت السؤال الآتي: هل مجتمعنا يريد بناء حضارة، أم يريد واجهات براقة قد تقنعه بأنه قد أصبح عصريا؟ حمل سؤالك هذا دلالات لا يحملها كثير من الكلام، ونبَّه على أمور قد يغفلها النظر.

د – تنمية هاجس تطوير الأفكار: إن الفكرة، سواء أكانت نظرية فلسفية أو عملية تنفيذية، تظل دائما غير مكتملة النضج؛ أي تظل دوما في حاجة إلى التعديل والتمحيص والإثراء. وإذا أهملنا هذا العمل، انقلبت على الراجح مع الأيام إلى ما يشبه التخيلات والتنظيرات الساذجة، ثم تؤول إلى الاضمحلال أو فقدان الفاعلية.

تتحول الأفكار التي يتكرر طرحها على نحو جامد، دون أن تصقل وتنقح، إلى ما يشبه خردوات التاريخ، لتؤشِّر على أن أصحابها باتوا ينتمون إلى زمان غير زمانهم، ويفكرون لزمان غير زمانهم الذي يحيون فيه ويتحركون في رحابه. إنه عند استنفاد الطرق المعهودة، يتعين البحث عن طرق جديدة، فالمؤكد أننا إذا غيرنا، عند الصعوبة أو الاستحالة، من أسلوبنا في التفكير، فسنرى عالما جديدا واسعا من الفرص والإمكانات. ولكم يؤسفنا أننا نادرا ما نحاول البحث عن تقنيات أجدى، وميادين جديدة، بسبب قصور التفكير ومحدوديته.

ولعل من أعداء التفكير السليم تبسيط الأفكار وعدم نضوج الرؤية، والحال أننا نتعامل مع واقع شديد التعقيد، سريع التغير، يحتاج إلى نباهة فائقة وفطنة كبيرة، كما يحتاج إلى استشراف. فيجدر بنا أن نبتعد عن العجلة في إصدار الأحكام، وعن السطحية، والاندفاع في الأحكام المبسطة والنظرات الساذجة. كما يتعين علينا الحذر من استعمال المعطيات والفرضيات غير الكاملة ولا النهائية أو الممحصة كفاية. وجيلنا مدعو إلى استيعاب الظواهر مهما تطورت أو تعقدت، ويتحداها مهما طغت أو تزخرفت، ولا يتأتى ذلك إلا بالتسلح بالفكر المستنير والوعي الراشد، وما أمس حاجتنا إلى هذا، ولله ذر مالك بن نبي رحمه الله حيث قال: " إن ما ينقص مجتمعا ما في منعطفات التاريخ الخطير ليس قلة أشيائه، ولكن فقر أفكاره"[1].

2- تهيئة الإطار المنهجي والمعرفي للتعامل مع المشكلات الواقعية:

يتعين على من يتصدى لبناء المشروع الحضاري الإسلامي أن يعمل فكره في تحديد المشكلات الراهنة والقيام بنقدها ومحاولة البحث عن حلول لها وأن يظل في حالة مستمرة من التلمس للمنهجية الصحيحة في التفكير..و هو يسعى إلى بلورة الرؤى واستخلاص العبر وكشف السنن والدلالة على الشروط اللازم توافرها للإقلاع الحضاري.

[1] – مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، ص 20.

يظهر لنا هذا الجيل قلق، يعيش في تخبط واضطراب، وهو يكاد يفقد الرؤية تماما. وما يؤشر على ذلك هو أسلوبه الحياتي، وتفسيراته الشخصية، واعتماده على رؤى ونظريات غير مثبتة، واهتمامه بالأحداث السطحية والآراء الجزئية دون المصالح والاهتمامات الكلية، وانشغالاته القاصرة والمحدودة، ومجادلاته التائهة، وانغماره في المماحكات والمتاهات المضنية إلى حد التصارع بآراء جزئية وموضوعات وهمية أحيانا. إنه لا مناص من التحلي بالوعي، وأن يكون المنهج رائدنا في كل شيء، وخريطة أساسية وبوصلة موجهة لجهودنا التنظيرية والعملية في هذا القرن الجديد.

إن الخطأ الذي ينبغي اجتنابه عند التعاطي مع ظاهرة كبرى شديدة التعقيد وذات أبعاد مختلفة، كالتغيير الحضاري، هو بترها عن امتداداتها، وهو صنيع لا يقودنا إلا إلى فهم مبتسر للظاهرة. مما يعني ضرورة تحلي رواد المشروع الحضاري بحاسة الاستشراف. " وإن الفكر الرفيع هو الذي يسمو في آفاق النظر العالي، ليشرف على كل الأشياء من المحل الأرفع، كما يعبر ابن سينا؛ ثم ينفذ ببصيرته الخارقة إلى بواطن الأشياء فيستجليها، ثم يقارنها بالظواهر"[1].

ومن الأخطاء المنهجية التي يرتكبها المسلمون، كما نبه الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، إهمال البناء والولوع بالتكديس والكم ظنا منهم أنه سبيل موصل إلى تشييد الحضارة، فقال: " ومن البيِّن أن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة"[2] ثم يعقب مصوبا ودالا على المنهج الصحيح " إن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن ' الحضارة هي التي تلد منتجاتها' وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"[3] وقال في موطن آخر" فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة[4] من أساسها"[5] وهكذا ينتهي بتصحيح المعادلة وتصويب المنهجية فهو يرى أنه " يجب أولا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[6].

يتعين الحذر من الانخراط في الطرق المسدودة، أو الصيرورة إلى وضعية يضيِّع فيها الناس الممكن في طلب المستحيل؛ ومعنى هذا أنه يتحتم علينا أن نتجنب فخ المعادلات المقفلة، ونجتهد في توسيع دائرة الخيارات.

وفي عملية البناء الحضاري، يجب أن نعي جيدا ما نريد وما التغيير الذي ننشده؟ أما التغيير الذي يأتي كردة فعل، لاستياء أو تذمر أو شعور بالظلم أو نحو ذلك، فهو على الأرجح لا يكون مستبصرا في طريقه، ومن تم يبعد أن يحقق أهدافه التي يتطلع إليها، بل قد يخرج من مربع الفعل البناء إلى الهدم والفوضى.

---

[1] – علال الفاسي، المرجع السابق، ص 35.

[2] – مالك بن نبي، مشكلة النهضة، ص 44.

[3] – مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 42.

[4] – الحضارة عند مالك بن نبي= الإنسان+ التراب + الوقت. وقد لاحظ رحمه الله أنه في القرن العشرين يؤثر الفرد في المجتمع بثلاث مؤثرات: أولا– بفكره ثانيا– بعمله ثالثا– بماله.

[5] – مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 45.

[6] – مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 77.

3- الانفتاح الواعي والمستبصر:

يعد الانفتاح الواعي والمستبصر شرطا ضروريا في البناء الحضاري الواعد، ويمثل تجديد الدين، بمعناه الصحيح، أحد منطلقات الانبعاث الحضاري الجاد. وقصَدْت بالتجديد هنا المعنى الذي وضحه به محمد عمارة بقوله: " وتجديد الأصول يعني: الكشف عن جوهرها، وتجليتها إذا علاها غبار الابتداع، فتُطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل. فليس التجديد نقضا لاكتمال الدين وثباته، بل إنه سبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته إلى الميادين الجديدة والأمور المستحدثة، والضمان لبقاء الأصول صالحة لكل زمان ومكان"[1].

لقد أضحت مسألة الانفتاح المستبصر أكثر من ضرورة، لا سيما في عالم اليوم الذي أصبح قرية كوكبية، فتشابكت فيه العلاقات والمصالح، وأصبحت زواياه الأربعة رغم تباعدها المكاني في تواصل عجيب. كما أتاحت لنا مكتشفاته إمكانات هائلة، لا يمكن الإفادة منها في خدمة مشروعنا والقيام برسالتنا إلا بالانفتاح عليها. والحقيقة أنه ليس هناك ما نخشاه لو كنا حقا مؤمنين، وما دمنا مستمسكين بمنهجنا وقيمنا وطريقة عيشنا المستمدة من ديننا الحنيف.

ومن أنواع الانفتاح الذي قصدنا أن نطالع تجارب غيرنا للاعتبار والدرس، ونجري ما أمكن من المقارنات بغية الاستفادة مما لدى الغير من رؤى وخطط وبرامج وأفكار صالحة. وإذا كان بعض الناس يرفض المقارنة، فما ذلك إلا لأنها تضعهم أمام المرآة، فيرون عيوبهم وأنواع قصورهم.

ومن معاني الانفتاح الإيجابي أيضا، امتلاك الحس والحدس الذين يمكنان الأمة من استغلال معطيات الزمان، واهتبال الفرص التي يتيحها، لصالح قضيتنا، وما أوفر هذه الفرص والإمكانات.

إن كثرة الانشغال بالماضي، وعدم ملاحظة الواقع بشهود ووعي، والعيش على حافة التيار الحضاري العام، وعدم النظر إلى المستقبل باهتمام، كل ذلك يؤدي إلى عزلة المسلمين عن التواصل مع عناصر القوة التي يوفرها هذا الزمان، وتحرمهم بالتالي من أن يحتلوا موقعا فاعلا في السجال الحضاري.

أما الزعم بأن القيم الغربية هي القيم العصرانية الصالحة لأن تكون عالمية، وأننا إذا لم نأخذ بها فلا أمل في تحديث مجتمعاتنا، فهو ادعاء باطل وعمى ثقافي. فأنى لها ذلك والسوس ينخر في كيانها، والإفلاس يتهددها من كل جانب.

4- التحلي بروح المبادرة كشرط لاستثمار إمكانات التطوير:

لقد أصيبت الأمة الإسلامية منذ عهد ليس بقريب بالتوقف ثم الجمود، وانقطع فيها التجديد والمبادرة والإبداع، وبقيت على هذه الحال إلى أن بدأ الانفتاح على الغرب الذي كان قد قطع شوطا بعيدا في الابتكار والتجديد والإنتاج، فتأثر المسلمون بتلك الحياة الجديدة، خيرها وشرها، لفقدان الحصانة، وقصروا في إرجاع الحياة إلى الأصول الإسلامية الأصيلة وربطها بعطاء الشريعة، الأمر الذي كان سببا في إثارة الشبهات حول الأحكام الشرعية، ووصم الفقه بالعجز عن

[1] - محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، ص 96.

مسايرة الحياة الجديدة، وعدم صلاحية الشريعة للمدنية والحضارة، وأن الدين الإسلامي معوق للتطور، فوقع المسلمون في مصيدة الكفار.

واليوم، لم يعد أمام المسلمين من خيار في أخذ زمام المبادرة، واستدراك ما فاتنا من تأخر، ولا يكون ذلك إلا بالعمل المتواصل، والجهد الذكي، والتخطيط الرائد، والاعتماد على الله ثم على أنفسنا.

لكن ما الخيار الذي نعتمد: الحق أم الواجب؟ إن الأنسب، فيما أرى، على الأقل في الوضع الراهن لأمتنا، التركيز على الواجب، فنبدأ بإعلان "واجبات المسلم" ونطالب أنفسنا بحسن القيام بها، ولا شك عندي أن الحقوق ستتبع الواجبات كما يتبع الربيعُ الشتاءَ. أما إعلاء نبرة المطالبة بالحقوق، التي أكثرها حقوق لا يقدر أحد على تلبيتها الآن، فأعتبره تخديرا لأمة أنهكها أصلا الخمول والدعة، وتقاعست تقاعسا منكرا عن القيام بالأعمال، وابتليت بعدم الاعتماد على النفس وقلة إيمانها ببذل الجهد. إنه من واجبنا أن نعمل على خلق ذهنية جديدة تقوم على تفضيل من يؤدون أعمالهم بتفان وإتقان على سائر الناس.

وما طبيعة العمل المراد القيام به في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة؟ إنه العمل الذي ينقل من دائرة الفتور إلى الفاعلية، ومن السلبية إلى الإيجابية، ومن الانتظارية إلى المبادرة، ومن الانعزالية إلى التدافع. وذلك هو ما يمنحه إمكانية الانخراط في ديناميكية التطور واسترجاع دور الريادة السالف.

5- من منطق العمل إلى ضرورة العمل بسرعة الفكر:

إن الطريقة الوحيدة التي يصبح بها المبدأ، أو الفكرة، جزءا من التاريخ هي أن يتحول إلى عمل. فما أحوجنا إلى منطق العمل، بل إلى ضرورة "العمل بسرعة الفكر"[1].

إن المطلوب من جيل الأمة اليوم واضح لا يحتاج إلى فلسفة، ولا يقبل الجدل، إنه ضرورة تلازم الفكر والعمل: الفكر يقود العمل، والعمل يثمِّن التفكير، وذلك باستثارة حوافز العمل والتضحية.

و يجب ألا يغيب على أذهاننا أبدا أن غدنا متوقف على مقدار جهدنا ونوعه، وأن الحياة مبنية على الحقائق والمراحل الشاقة التي لا تقطع إلا بالإيمان والجد والصبر والمثابرة. وإن المعركة مع النفس والشيطان ومغريات الدنيا وقوى الباطل، تتطلب إيمانا أقوى، وإرادة في العمل أصلب. وإنه على قدر ما عند الطليعة القيادية والقاعدة المعبأة من استعداد للبذل والتضحيات، وقدرة على سوق الجهود إلى قمة التوتر والفاعلية يتوقف نجاح الحركات في التاريخ.

والواقع، أنه لا يكفي في مثل هذه الأوضاع الاستثنائية الصعبة التي تعيشها الأمة أن نعمل فحسب، بل يجب أن نجاهد بقوة وإصرار، مسلحين بالإيمان والعلم والفكر وقوة الإرادة والأمل.

إن مشروع الحضارة الإسلامية، وهو يجابه الدور الكبير والتحدي العظيم، إن لم يعبئ أصحابه باستمرار مخزون نضالهم بقيم دينهم، عبر جميع المراحل، فستنفد قوتهم بسرعة، ويسقط مشروعهم، لا سمح الله.

---

[1] – العبارة لـ Bill Gates.

6- أن يكون تخطيط التغيير تداوليا وجهد التغيير جماعيا:

لعل من أخطر الأدواء التي يشتكي منها المسلمون اليوم، والتي لها نصيب كبير في فشل الكثير من أعمالهم ومشاريعهم، أنهم لا يعدون العدة للأمور، ولكنهم يظلون في تغافل وتردد، ثم يرتجلون الأفكار على ضوء السريع ويرتجلون بعدها العمل على حسب ما تقتضيه الظروف. وهو ما فعله العرب بالذات في قضية فلسطين، فظلوا مترددين فيما يجب أن يعمل، حتى إذا صدر قرار التقسيم هبوا تدفعهم الغيرة، يرتجلون ما في استطاعتهم من عمل، وقد فعلوا المعجزة ولكنها معجزة الارتجال[1]. فقومنا لا يعيرنا اهتمام للتفكير المسبق، ولا لوضع برنامج يتم التنفيذ على أساسه، وإنك لتلمس آثار هذا الضعف في كل أعمالنا. فأين نحن من أسلافنا الذين كانوا يقلبون الأمور على جميع وجوهها، ويتدبرون في الشؤون مليا قبل تنفيذها؟

والحقيقة أنه لا يمكن لأمة أن تنهض من وهدة السقوط التي وقعت فيها، إلا إذا تدربت على أن تفكر تداوليا وتخطط جماعيا. وما ذلك إلا لأن إصلاح المجتمع والتغيير الحضاري مهمة شاقة ومسألة جد مركبة، تحتاج إلى تضافر مختلف الجهود، وتعاون جميع الفاعلين على مستوى الأمة، بشكل تشاركي وتكاملي، لتحديد نقطة البدء، والوسائل والسبل الكفيلة بتحقيق الغرض.

ويؤسفنا أن نقول إن الذهنية الإسلامية الحديثة غير فردية وغير جماعية، ولذلك فهي لا تتآزر ولا تعرف للتعاون ولا للاجتماع سبيلا، إلا في النادر من أحوالها.

أما جهد التغيير، وأعمال البناء والتشييد، وكل صور الإنجازات فهيهات أن تقوم لها قائم عبر المجهودات الفردية، والمبادرات المنعزلة والارتجالية.

[1] - علال الفاسي، المرجع السابق، ص 25.

خاتمة

إن الإسلام بوصفه المصدر الرباني، مخالف للفكر البشري في زيوفه وأهوائه. والفكر الإسلامي بتميزه رفض دوما مبدأ التبعية، وقرر أن التقليد ينافي الأصالة ويهدرها. ولقد كان للفكر الإسلامي – ولا يزال– خصائصه العميقة الثابتة القادرة على أن تأخذ حاجتها، بوعي وتمحيص، من كل ما يقدمه الفكر البشري والاجتهاد الإنساني، دون أن يكون له عليها ذلك النفوذ القاهر والمهيمن الذي يغير طابعها أو يحتويها. إن أخطر الأخطار التي تواجه أمتنا الإسلامية هو: فقدان الأصالة في مجال حياتها الاجتماعية، وعند سعيها لإعادة بناء مشروعها الحضاري المأمول.

غير أننا لا نرفض العصر، ولا نتقوقع في الماضي، ولكن نقيم أساسا إسلاميا خالصا متميزا، نواجه به الفكر الرامي إلى غزونا وتضليلنا وهزيمتنا. إننا نرفض تلك الموارد الكَدِرة، المزدحمة بالشر والباطل، والتي يحاول أصحابها أن يخرجوها إخراجا له طابع علمي براق ليخدعوا به المسلمين المارقين والغافلين.

إن حاجتنا إلى الغرب تتلخص في حاجتنا إلى العلوم التجريبية والتجريدية والتكنولوجيا وأساليب تنظيمية مفيدة في الحياة الكريمة، لننقلها إلى محيطنا الإسلامي والإفادة منها باعتبارها تراثا إنسانيا مشتركا، ونستعملها في خير الإنسانية جمعاء ونفعها.

إن أكذب ما ينقل إلينا ونضلل به هو تلك الرابطة الوهمية بين العلم التجريبي وأسلوب العيش الغربي وأيديولوجياته وآدابه ومنازعه المادية والعبثية؛ لأن لدينا منهجا خالصا نعتز به ولا نريد به بديلا. والحق الذي لا محيص عنه أن المقبول هو ما استجاب لعقائدنا، وما سد نقصا في حاجتنا.

إننا اليوم في طريقنا إلى تسلق الجانب الوعر من المسار، حيث ظلت مطالب العمل تتنامى، وباتت آثار التحديات تتضخم، كل ذلك في وقت قل فيه الناصر الأبي، والمفكر اللوذعي، والعامل الحازم، وكثر صنف المتشدقين والمثبطين وأصحاب الكسل والبطالة والتخرص. لأجل ذلك تظهر حاجتنا ماسة إلى التفكير المتنامي، والتخطيط الرائد، والتحفز للعمل الجماعي، والتداول في الرأي بشأن المطالب المختلفة التي تنظر مشروعنا الحضاري والتحديات الهائلة التي تواجهنا. فمن للعمل الإسلامي اليوم، يجعله في بؤرة اهتمامه، ويحمله حقيقة لا دعوى، بإيمان راسخ، وعقلية إيجابية، ونية صادقة، وعزيمة ماضية لا تلين.

"وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" صدق الله العظيم.

والله يقول الحق ويهدي السبيل.

*** قائمة المراجع:**

1. أنور الجندي، شبهات في الفكر الإسلامي، الاتحاد الوطني لطلبة الإمارات، 1405 هـ - 1984 م، ص 39-40.
2. أنور الجندي، عالمية الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص 124 وما بعدها.
3. أنور الجندي، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية – الأردن، السنة الرابعة، العدد الحادي والخمسون، 1392 هـ - 1972م، ص 109.
4. سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة السادسة، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص 20-21.
5. عبد الله ناصح علوان، الإسلام شريعة الزمان والمكان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ص 63- 64.
6. علال الفاسي، النقد الذاتي، الطبعة الأولى، المطبعة العلمية، القاهرة، ص 35.
7. عمر عُبَيد حَسنة، تأملات في الواقع الإسلامي، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي بيروت-لبنان،1411هـ-1990م، ص26.
8. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت، 1969 م، ص 48.
9. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي-عبدالصبور شاهين، دار الفكر، 1406 هـ - 1986 م، ص43.
10. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، 1423 هـ - 2002 م، ص 21.
11. محمد أسد، رسالة في التقليد، ص 6-7.
12. محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تفسير سورة مريم، مطبعة المدني، 1384 هـ، ج4، ص 412.
13. محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، ص 96.
14. ناصر بن عبد الكريم العقل، التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، رسالة لنيل شهادة العالمية، كلية الشريعة- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1393هـ - 1394 هـ، ص 107.